مجلة الريادة للبحوث والأنشطة العلمية
Al-Riyadah Journal For Researches And Scientific Activities
العدد السابع
مارس 2023 March

صوائت العربية: الخصائص والملامح

عبد الحكيم احمد محمد
كلية التربية أبوعيسى / جامعة الزاوية

المقدمة

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على نبي الأمة الأكرم، وعلى من اتبع هداه ويمم، وبعد:

فإن من أفضل العلوم علم اللسان الذي به يعرف المرء الكلام، ويدرك أسرار البيان الذي خص به الله –عز وجل– نوع الإنسان، وعلوم اللسان كثيرة متنوعة يتناول كل علم منها جانباً من جوانب اللغة ووجهاً من وجوهها، ومن هذه العلوم التي لا غنى لطالب العربية عن دراستها، ولا مناص له من مطالعتها علم الأصوات، ومن الدروس الصوتية المهمة التي بحثها علماؤنا الأوائل ثم أضاف عليها المحدثون ما أضافوا درس الصوائت، وهو درس برغم ما كتب فيه قابل لمزيد البحث والدراسة، وقد رأيت أن أكتب فيه بحثاً تدور مادته حول خصائص الصوائت في اللغة العربية وما تمتاز به عن الصوامت مع التركيز على صوائت العربية وجهود علمائنا في بحثها ليكون بحثاً يجمع ما تفرق بعيداً عن الاستطرادات واصطلاحات المحدثين التي امتلأت بها كتب المتأخرين، وليكون غاية البحث دراسة صوائت العربية بشكل وافٍ والإحاطة بها من جوانب توضحها وتجليها للقارئ في إطار أصالة هذا الدرس عند علمائنا، وإثبات سبقهم وتقدمهم فيه إلى حد لم يزد فيه المحدثون إلا اليسير، فبدأت جمع ما يتعلق بهذا الموضوع، ورأيت أن أدرسه تحت عنوان (صوائت العربية الخصائص والملامح) من خلال المحاور التالية:

التعريف بالصوائت في اللغة والاصطلاح.

الفرق بين الصوائت والصوامت.

الصوائت في الدرس اللغوي القديم.

وظيفة الصوائت في اللغة.

أنواع الصوائت.

مخارج الصوائت.

الأوصاف العامة للصوائت اللغوية.

Copyright for the journal © حقوق الطبع محفوظة للمجلة

وفي نهاية هذه المقدمة ألتمس من كل من يقرأ البحث أن يكرمني ببيان ما فيه من سقطات وهنات، وألا يبخل عليّ بالنصح والتوجيه، فالنقص في كل عمل لازم، وإصلاح الخلل من الواجب على كل باحث.

والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله وسلم على محمد وآله وصحبه.

التعريف بالصوائت في اللغة والاصطلاح:

الصوت: مصدر الفعل الثلاثي: صاتَ يَصُوت بمعنى: صاحَ[1]، واسم الفاعل منه صائت، أي: ذو صوت، والصوت كل ضرب مما يسمع، وجاء في لسان العرب: ((الصوت إطلاقاً هو الجرس))[2]، والصائت ما كان ذا صوت أو جرس، أو ما أصدر صوتاً، فالصوت يعم كل ما كان له جرس أو وقع أو صوت أو أثر ترددي يُدرك بحاسة السمع أو غيرها، أما صوت الإنسان فهو: ((عَرَض يخرج مع النفس مستطيلاً متصلاً))[3]، يكون له وقع في الأذن يُدرك بالسمع.

والصوائت على وزن (فعائل)، وهو جمع مفرده (صائتة) مؤنث صائت، وهو كما سبق البيان: كل ما كان ذا جرس يسمع، وبما أن حديثنا مقصور على الصوت اللغوي فإن هذا العرَض الصوتي المسموع يراد به ما صوت به الإنسان مما يلفظه اللسان وغيره من أعضاء النطق، وهو بذلك يختلف عن غيره من الأصوات غير اللغوية التي تتولد في الطبيعة لأسباب كثيرة.

وأما في الاصطلاح (اصطلاح علماء الأصوات) فيُعد الصوت الصائت قسيم الصوت الصامت؛ ولهذا يجدر بنا أن نعرف الصوت الصامت حتى يتسنى لنا معرفة الصائت وتمييزه عما يقابله، خاصة أن الصوائت توابع الصوامت كما سيتضح، ولها من الأهمية ما للصوامت رغم قلتها في العربية.

الأصوات الصوامت هي الأصوات اللغوية المعروفة في العربية وغيرها التي يتميز كل صوت منها بمخرج وصفة، فالهواء عندما يندفع في حال الزفير خارجاً من الجوف يحتك بمخرج أو جهة ما في جهاز النطق، فيتشكل الصوت، ويكون له في ذلك المخرج أو المدرج عند احتكاكه صفة تميزه كالشدة والرخاوة أو الجهر والهمس أو الرقة والفخامة، وبالمخرج والصفة تكون طبيعة الصوت، ويتميز الحرف، ويستقل الصوت عن غيره من الأصوات، وتتقارب الأصوات وتتباعد من حيث مخارجها وصفاتها بحسب أنواعها، وتسمى الأصوات التي سبق وصفها عند علماء العربية القدامى

والمحدثين بالحروف، وبذلك يمكن تعريف الصوامت كذلك بأنها: ((الأصوات التي ينحبس الهواء أثناء النطق بها انحباساً كلياً حتى ينغلق مجرى الهواء، أو جزئياً حتى يضيق مجرى الزفير))[4].

وقد عرف أحد الباحثين المحدثين الصوت الصامت بأنه: ((الصوت المجهور أو المهموس الذي يحدث في نقطة أن يُعترض مجرى الهواء اعتراضاً كاملاً... أو اعتراضاً جزئياً من شأنه أن يمنع الهواء من أن ينطلق من الفم دون احتكاك مسموع))[5]، وإذا أراد الناطق أن يتذوق الصوت الصامت ويتحسسه فلينطقه ساكناً[6] حتى تتحدد بسهولة بقعة مخرجه ومكان نطقه الذي يحدث فيه.

أما الصوت الصائت موضوع بحثنا فهو الصوت الذي يندفع الهواء عند النطق به من الجوف دون أن يعترضه عارض من أعضاء النطق، ودون أن يضيق مجرى النفس الزفير في مدرج ما، فالصائت لا مخرج له ولا حيز معين ينتمي إليه من أعضاء النطق، فالصائت يحدث باندفاع الهواء مستمراً من الحلق والفم[7]، والصوائت هي الأصوات التي اصطلح علماؤنا الأوائل على تسميتها بالحركات والمدود[8]، كما اصطلحوا على تسمية الأصوات الصامتة بالحروف، فالحرف عند علماء العربية القدامى يرادف الصامت عند المحدثين، والحركة ترادف مصطلح الصائت المستعمل بكثرة في الدرس الصوتي الحديث.

وقد أشبع الدارسون المحدثون موضوع الأصوات الصوائت بحثاً، وتناولوه من جميع جوانبه كما سيتضح ذلك من خلال محاور هذا البحث؛ وذلك لأهمية الصوائت في تشكيل الكلمات ونسج مبانيها في مختلف اللغات، كما أن هذا المبحث من الدرس الصوتي لم يكن غائباً من درس علماء العربية الأولين، فقد تناولوه بالدرس، وفصلوا القول فيه تفصيلاً، وميزوا الحركة من الحرف أدق تمييز، بل لا نكون مغالين إن قلنا: إن المحدثين من الدارسين لم يفوقوا الأولين ولم يبرعوا إلا في التفصيل والتفريع وتوسيع دائرة البحث والملاحظة لتشمل دراسة الصوائت في كل لغة، كما تميزت الدراسات الحديثة بالدقة التي تأتت من التطورات الحديثة في علم وظائف الأعضاء والتشريح والمختبرات الصوتية المتقدمة، وهذه الإمكانات الحديثة هي التي ساعدت عالم الأصوات دانيال جونز في دراسة الصوائت دراسة معيارية دقيقة حددت أنواعها وطرائق نطقها، فخرج من هذه الدراسات المكثفة بوضع الحركات المعيارية، تشمل هذه الحركات الأصوات الصائتة في اللغات الإنسانية، وقد قام جونز بتصنيفها وترتيبها حسب أطوالها وطرائق نطقها.

الفرق بين الصوائت والصوامت:

لعل الفرق بين الصوامت والصوائت قد اتضح من خلال التعريف والتمثيل لكل منهما، ولكن الفرق سيزيد وضوحاً بالتفريق بينهما من حيث المخرج والصفة، فالصوائت (الحركات والمدود) لا مخرج لها، والصوت يخرج عند النطق بها حراً طليقاً لا يعترضه شيء، ولا يكاد يعمل عند نطقها شيء أعضاء النطق إلا الأوتار الصوتية[9]، أما الحروف الصوامت الساكنة الخالية من الحركة فهي أصوات ذات مخارج ومدارج في أعضاء النطق، فمتى احتبس الهواء في جهة ما أو ضاق مجرى النفس فيه فذاك مخرج الحرف الصامت، وموضع النطق به، وحيزه العضوي الذي ينتمي إليه.

أما من حيث الصفة فالصوائت كلها وفي كل لغات العالم أصوات مجهورة، تهتز الحبال الصوتية عند النطق بها، فتُحدث رنيناً ذا أثر واضح سنتعرف عليه فيما يأتي من محاور البحث إن شاء الله، وبهذا يكون الأثر المسموع للصوائت واضحاً، وتكتسب بالجهر قوة فيزيائية أقوى من غيرها من الأصوات غير المجهورة التي لا تهتز معها الأوتار الصوتية، وأما الصوامت فمنها ما هو مجهور، ومنها ما هو مهموس، وسوف أزيد توضيح فرق ما بين الصامت والصائت بطريقة عملية على النحو التالي:

إذا نطقت بحرف ما فتشكل هذا الحرف وتكون في مخرجه فهو الصوت الصامت الخالي من الحركة، أما إذا أتبعت الصوت المنطوق بحركة أو صوت ليمتد أثر الصوت السمعي فذاك هو الصائت، فمثلاً في كلمة (كتب) تجتمع ستة أصوات: ثلاثة منها صامتة، وثلاثة صائتة، الثلاثة الصامتة هي الكاف والتاء والباء، والثلاثة الصائتة هي الفتحات الثلاث التي تعقب كل حرف صامت، والصائت الذي يأتي بعد الصامت لا يختلف في صفته وطبيعته مهما كان الصامت الذي يسبقه، فالصائت المفتوح نوع واحد من حيث الصفة لا يختلف عن مفتوح آخر إلا في مقدار طوله، فإذا نطقت مثلاً: (كا) أو (تا) أو (با) ومددت الصائت بعد كل صامت مداً طويلاً فستجد أن الصائتات بعد كل حرف جنس واحد لا يختلف في صفته باختلاف الصامت التابع له، وهو صائت الفتح الممدود، وكذلك الصائت المضموم جنس، والصائت المجرور جنس.

الصوائت في الدرس العربي القديم:

سبق أن ذكرنا أن علماء العربية اصطلحوا على تسمية الصوائت باسم الحركات والمدود، وهو مصطلح موافق تماماً لمعنى الصوائت لمن تأمل، وقد ورد وصف هذا النوع من الأصوات في أول مؤلف صوتي في العربية، وهو كعجم العين للخليل الفراهيدي الذي رتب فيه الخليل حروف اللغة العربية ترتيباً صوتياً، فبدأ بأقصاها في جهاز النطق حتى انتهى إلى أدناها، وبذلك اكتسب هذا المعجم صبغة صوتية، واحتوى مباحث مهمة في هذا الجانب من الدراسة اللغوية، ففي معجم العين أطلق الخليل على ما نعرفه اليوم بالصوائت الطويلة اسم ((الحروف الهوائية أو حروف الجوف))[10]، وقد سماها بهذا الاسم؛ لأنه ليس لها مخرج لغيرها من الأصوات، ولا تنتمي إلى حيز معروف ولا عضو من أعضاء الكلام، ويظهر بشكل جلي من الوصف السابق للخليل أنه عرف هذه الأصوات حق المعرفة، واهتدى إلى تمييزها عن غيرها من الحروف ذات الأحياز والمخارج، وتتأكد معرفة علمائنا القدامى بالصوائت وتمييزهم لها تمييزاً دقيقاً بما نقله ابن منظور عن الأزهري قال: ((يقال للياء والواو والألف الأحرف الجُوفُ، كان الخليل يسميها الحروف الضعيفة الهوائية، وسميت جُوفاً لأنه لا أحياز لها كسائر الحروف التي لها أحياز، إنما تخرج من هواء الجوف، فسميت مرة جُوفاً ومرة هوائية، وسميت ضعيفة لانتقالها من حال إلى حال عند التصرف باعتلال))[11].

وأما سيبويه تلميذ الخليل فقد وصف الصوائت الطويلة (الألف والواو والياء) وصفاً كاشفاً من حيث المخرج ومن حيث الصفة قال: ((هذه الحروف غير مهموسات، وهي حروف مد ولين، ومخارجها متسعة لهواء الصوت، وليس من الحروف أوسع مخارج منها، ولا أمد للصوت، فإذا وقعتَ عندها لم تضمه بشفة ولا لسان ولا حلق كضم غيرها))[12]، وقد ماز سيبويه بدقة بين الصامت (الحرف) والصائت (الحركة والمد) عندما ذكر ناقلاً عن الخليل بن أحمد أن الحرف في أصله ساكن، وأن الحركات زوائد تلحق الحروف لتيسير النطق والكلام[13].

أما فارس علم الأصوات أبو الفتح ابن جني فقد أحاط بالصوائت درساً، وفصل فيها القول تفصيلاً، فذكر أنواعها في العربية، وسمى الحركات القصيرة (الفتحة والضمة والكسرة) أبعاض المدود (الألف والواو والياء)، وهي حركات طويلة[14] كما سيأتي بيان ذلك، وبذلك يكون ابن جني قد تعرف على الصوائت في العربية بأنواعها الستة الفتحة والضمة والكسرة والألف والواو والياء.

نجد من بعد ابن جني كثيراً من العلماء لعل من أشهرهم ابن سينا الذي شرح كل ما يتعلق بالصوائت شرحاً وافياً، بل سماها باسمها (الصوائت)، ووصف مخارجها وصفاتها وصفاً ليس فيه للمتأخرين كبير مزية.

وبعد هذا العرض الموجز لإسهام علماء العربية في دراسة الصوائت لا نجد ما يتميز به المحدثون والمتأخرون في هذا الجانب إلا في الأمور الشكلية التي تتعلق بالمصطلح، أو التوصيف المعملي الدقيق نوعاً ما في الدراسات الحديثة.

وظيفة الصوائت في اللغات:

الأصوات الصائتة لها دور مميز في الكلام، فهي تخرج الصوامت من سكونها وصماتها، وتجعلها بارزة في النطق واضحة في السمع، كما تعمل على تشكيل الكلمات صرفياً وتسهيل نطقها، فالانتقال من مخرج إلى مخرج لا يكون سهلا في كثير من الأحوال إلا بالاعتماد على صائت يتلو الصامت يوضحه ويهيئ لنطق الصامت اللاحق، ويبني الكلمة صرفياً لتكون صيغة لغوية تحمل معنى موضوعاً لها بحسب كل لغة.

فالصامت بمنزلة القنطرة التي يعتمد عليها الحرف الصامت ويعبر منها لتسلسل مع غيره من الحروف الصوامت والصوائت في النسق الكلامي، ولعل دور الصوائت في تسهيل النطق واقتصاد الجهد في التصويت يظهر من خلال القاعدة المعروفة في العربية التي تقضي بان العرب لا تبدأ بساكن ولا تقف على متحرك.

كذلك فإن للصوائت دوراً كبيراً في تكثير معاني الألفاظ لما لها من دور واضح جلي في صوغ الكلمات واشتقاقها وتغيير أبنيتها كما هو واضح معروف، فعلى سبيل المثال نجد للحركات والمدود (الصوائت) دوراً رئيساً في صوغ المشتقات التي تعبر عن المعاني المختلفة.

وتجدر الإشارة في هذا الموضع إلى أن من خصائص اللغة العربية كما هو معلوم ظاهرة الإعراب التي تعني تغير الحركات (الصائتات القصيرة)على أواخر الكلمات تبعاً لتغير المعاني وقابلية التركيب اللغوي للمعاني المتواردة التي لا يمكن الفصل بينها وتمييزها إلا بالحركات الصائتة، وبذلك يمكن القول إن الصوائت في العربية تؤدي وظائف لا تكاد تؤديها في أية لغة أخرى.

وتؤدي الصوائت وظائف معجمية كثيرة في العربية، فكثيراً ما يختلف معنى الكلمة باختلاف نوع الصائت[15]، وهذا من المطرد الشائع الذي لا يحتاج إثباته إلى دليل.

ورغم قلة صوائت العربية من حيث النوع مقارنة بغيرها من اللغات فإنها تكاد تعادل الصوامت في تمثيلها في الكلمات، وقد ذكر كمال بشر وفق دراسة إحصائية قام بها أن نسبة الصوائت في كلمات العربية 48% مقابل الصوامت التي تمثل: 52%[16]، وهما نسبتان متقاربتان إلى حد كبير، وهناك دراسات أخرى هدفت إلى معرفة نسبة الصوائت في العربية تتقارب مع دراسة بشر هذه.

وقد سبق أن ذكرنا أن من وظائف الصوائت الأساسية تسهيل النطق، وهذا ما ذكر سيبويه نقلاً عن الخليل، فقد اعتبر الحركات زوائد تلحق الحروف لتيسير النطق والكلام[17].

أنواع الصوائت في العربية:

يتفق علماء العربية القدامى والدارسون المحدثون في مجال الصوتيات على أن صوائت العربية ست هي: الفتحة والكسرة والضمة والألف والواو والياء، وإنما تختلف الفتحة عن الألف والضمة عن الواو والكسرة عن الياء في طول التصويت لا أكثر، ولا اختلاف بين كل ثنتين منها من حيث المخرج إلا في شيء قليل، وقد سمى علماؤنا الأوائل الثلاثة الأولى بالحركات، وسماها الدارسون المحدثون الصوائت القصيرة، وأما الألف والواو والياء فقد أطلق عليها العلماء الأوائل اسم المدود وأطلق عليها المحدثون اسم الصوائت الطويلة، وقد سبق بيان ذلك.

وهناك صوائت أخرى في العربية تتفرع عن هذه الصوائت الستة الأصلية، ولكنها لا تعدو أن تكون لهجات وألواناً نطقية ليس لها أي أثر في الدلالة أو الوظيفة المعجمية مثل الألف المائلة وغيرها من الظواهر الصوتية اللهجية، يقول ابن جني: ((واعلم أن الحركات أبعاض حروف المد واللين، وهي الألف والواو والياء، فكما أن هذه الحروف ثلاثة، فكذلك الحركات ثلاث، وهي الفتحة والكسرة والضمة، فالفتحة بعض الألف، والكسرة بعض الياء، والضمة بعض الواو، وقد كان متقدمو النحويين يسمون الفتحة الألف القصيرة، والكسرة الياء القصيرة، والضمة الواو القصيرة، وقد كانوا في ذلك على طريق مستقيمة))[18]، فالمدود إشباع للحركات، والحركات أصل للمدود.

أشباه الصوائت:

تناول علماء العربية قديماً أصواتاً أشبهت الصوائت من وجه، وأشبهت الصوامت من وجه، فاجتمعت فيها بعض صفات هذه وبعض صفات هذه، وسموها أشباه الصوائت، ((وهي أصوات ليست بالصوائت ولا بالصوامت، ولكنها توجد بين الصنفين على مستوى النطق حيث تستدعي خصائص كل منهما، وعليه فأشباه الحركات تعد صوامت وحركات))[19]، ومثال هذا النوع من الأصوات في العربية الياء والواو غير الممدودتين أي: الساكنتين والمتحركتين، مثل الياء في (بيت)، والواو في (صوت) و(وقف).

ومن خلال ما تقدم يتضح أن الأصوات غير الصامتة قسمان:

الأول: الصوائت، وهي ستة سبق ذكرها.

الثاني: أشباه الصوائت، وهي محصورة في صوتي الياء والواو غير المديتين كالياء في كلمات (زيْت، يئس، يواسي)، والواو في نحو: (وِرد، وُرود، حوْض، وعد)، وهذان الصوتان يقعان بين الصوائت والصوامت في التصنيف والتوصيف الصوتي؛ ولهذا سميت هذا النوع بأشباه الصوائت، وعلى ذلك فأشباه الصوائت مصطلح عند علماء الصوت يدل على الأصوات التي لها بعض خواص الصوائت من جهة، وبعض خواص الصوامت من جهة أخرى، وأكثرها شيوعاً في اللغات البشرية الصوتان اللذان يرمز لهما في الألفبائية الصوتية المعيارية بالرمزين[20].w)) و (j)

إن الأصوات الصائتة تحتاج إلى صامت تعتمد عليه كما سبق بيان ذلك، أما الأصوات شبه الصامتة فيمكن أن تستقل بذاتها دون الحاجة إلى صامت يسبقها، وهذا هو وجه الشبه بينها وبين الصوامت.

وبناء على هذا الوصف الموجز يمكن التفريق بين الواو الصائتة والواو شبه الصائتة، وبين الياء الصائتة والياء شبه الصائتة في العربية من وجهين:

الاول: شبه الصائت أقل وضوحاً سمعياً ورنيناً صوتياً من الأصوات الصائتة الخالصة.

الثاني: المجال أو الفراغ الصوتي عند نطق شبه الصائت سكون أضيق بكثير منه عند نطق الصائت الخالص[21].

ولعل ابن سينا لم يترك في هذا الفرق للمتأخرين قولاً، ولأهمية كلامه ننقل بعض ما قاله في التفريق بين هذين النوعين، يقول: ((وأما الواو الصامتة فإنها تحدث حيث تحدث الفاء، ولكن بضغط وحفز

للهواء لا يبلغ أن يمانعه في انضغاطه سطح الشفة، وأما الياء الصامتة فإنها تحدث حيث تحدث السين والزاي، ولكن بضغط وحفز للهواء ضعيف لا يبلغ أن يحدث صفيراً، وأما الألف المصوتة وأختها الفتحة فأظن أن مخرجهما مع إطلاق الهواء سلساً غير مزاحم، وأما الواو المصوتة وأختها الضمة فأظن أن مخرجهما مع إطلاق الهواء مع أدنى تضييق للمخرج وميل به سلس إلى فوق، وأما الياء المصوتة وأختها الكسرة فأظن أن مخرجهما مع إطلاق الهواء مع أدنى تضييق للمخرج وميل به سلس إلى أسفل))[22].

مخارج الصوائت :

إن الكلام في مخارج الصوائت لا يناقض مطلقاً القول بأنه لا حيز لها، أو أنها لا مخرج لها، ولكنه يعني وصف طريقة إنتاجها، ووضع بعض أعضاء النطق عند التصويت بها، وبهذا سوف أعرض وصف إنتاج هذه الأصوات على النحو التالي:

الأول: وضع الوترين الصوتيين عند نطق الصوائت.

الثاني: وضعية اللسان وحركته عند حدوثها.

الثالث: وضع الشفتين.

ورغم أن وصف الصوائت من خلال هذه الأمور الثلاثة هو غاية ما يمكن فإن الوصف الدقيق والتشريح الكامل لنطقها من الصعوبة بمكان، وهذا ما صرح به ابن سينا الذي تكلم في هذا النوع من الأصوات كلاماً دقيقاً مفصلاً –كما مر بنا– لا يختلف عن كلام المتأخرين والمعاصرين الذين يملكون الأدوات التشريحية والمعامل الصوتية الدقيقة، قال ابن سينا: ((وأما المصوتات فأمرها علي مشكل))[23]، وهذه النتيجة التي ذكرها ابن سينا هي النتيجة عينها التي وصل إليها برجستراسر حين قال: ((للحروف الصائتة مخارج مثل مخارج الحروف الصامتة غير أن تحديدها وتمييزها مشكل))[24]، وقد وصف الخليل الصوائت بأنها: ((تخرج من الجوف، فلا تقع في مدرجة من مدارج اللسان، ولا في مدرجة من مدارج الحلق، ولا في مدرجة من مدارج اللهاة، وإنما هي هاوية في الفم، فلم يكن لها حيز تنسب إليه إلا الجوف))[25]، ولعل صعوبة وصف الصوائت راجع إلى عدم وجود مخارج لها، ودقة حركة بعض أعضاء النطق عند إنتاجها، ما يستدعي ملاحظة دقيقة جداً.

وفيما يلي توصيف للصوائت وفق الأمور الثلاثة التي تمت الإشارة إليها:

أولاً- الفتحة:

صوت مجهور، أي: يتذبذب الوتران الصوتيان عند حدوثه، ويهتزان اهتزازاً يجعل الأثر الفيزيائي واضحاً، والرنين الصوتي مدوياً، ويهبط الفك السفلي عند نطق الفتحة، أما اللسان فيستقر في قاع الفم مع ارتفاع وسطه قليلاً نحو سقف الحنك الأقصى، وتنفرج الشفتان، وتنفتحان بشكل شبه كامل، ومن هذه الحركة جاءت تسمية الفتح.

أما الألف – وهو صوت الفتحة المشبعة- فتختلف عن الفتحة القصيرة في المدى الزمني، فهي تحتاج إلى قدر زمني آخر يساوي قدر الفتحة القصيرة، فالألف فتحة مضاعفة من حيث الزمن، أو أكثر من قدر زمن الفتحة بأكثر من الضعف الزمني مع زيادة في انفتاح الشفتين وانطلاق الهواء الزفير من الجوف، وهبوط الفك السفلي.

ثانياً- الضمة:

تحدث عندما يندفع الهواء خارجاً في الزفير بشكل حر مع اهتزاز الوترين الصوتيين، ويرتفع الفك السفلي قليلاً، وترتفع مؤخرة اللسان نحو الحنك الأعلى إلى أقصى ما يمكن دون أن ينحبس النفس أو يضيق مجراه، وتقترب مؤخرة اللسان من اللهاة، يصاحب ذلك استدارة الشفتين وانضمامهما[26] وامتدادهما إلى الأمام مبتعدتين عن الأسنان، وكذلك الحال مع واو المد مع فارق القوة والزمن.

ثالثاً- الكسرة:

يتحرك الوتران الصوتيان متذبذبين عند اندفاع الهواء من الجوف، ويرتفع الفك السفلي قليلاً، وترتفع مؤخرة اللسان نحو سقف الحنك مع تباعد الشفتين قليلاً وانفتاحهما بشكل أفقي وانجذابهما نحو اللثة والأسنان وميل إلى الأسفل، وكذلك هو الحال مع الكسرة الطويلة (الياء) مع فارق زمني نسبي بقدر نطق كسرة أخرى أو كسرتين أو أكثر، وفارق كمي يتمثل في استمرار رنين الصوت وزيادة اندفاع الهواء المنطلق من الرئتين[27].

وبعد وصف طريق حدوث الصوائت ودور أعضاء النطق في إنتاجها نورد شيئاً يسيراً من كلام الأولين من علماء العربية لنتعرف على مدى عمق دراستهم وودقة وصفهم، يقول ابن جني عند الحديث في ذلك: ((وأما الألف فتجد الحلق والفم معها منفتحين غير معترضين على الصوت بضغط أو حصر، وأما الياء فتجد معها الأضراس سفلاً وعلواً وقد اكتنفت جنبي اللسان وضغطته،

وتفاج الحنك عن ظهر اللسان، فجرى الصوت متصعداً هناك، فلأجل تلك الفجوة ما استطال، وأما الواو فتضم لها معظم الشفتين، وتدع بينهما بعض الانفراج، ليخرج فيه النفس، ويتصل الصوت، فلما اختلفت أشكال الحلق والفم والشفتين مع هذه الأحرف الثلاثة اختلف الصدى المنبعث من الصدر))[28]، والواضح من هذا التوصيف أنه دقيق إلى حد بعيد، وهو يوافق ما سبق من وصف المحدثين كيفية حدوثها مع ما توافر لديهم من الأدوات التشريحية الحديثة، وفي نهاية الفقرة السابقة لابن جني إشارة إلى أن اللسان والشفتين والحلق هي الأعضاء التي بتشكلها وتغير أوضاعها تتكون الصوائت.

ومما تجدر إضافته أن بعض الدارسين يصفون الفتحة مثلاً بأنها منغلقة، ويعنون بالانغلاق ارتفاع اللسان نحو الحنك ارتفاعاً لا يحبس النفس، ولا يحدث حفيفاً ويحافظ على صفة الصائت الأساسية، وهي جريان النفس حراً، ويقصدون بالحركة المنفتحة الحركة التي يبقى اللسان فيها في قاع الفم بعيداً من الحنك، ووفق درجة الانغلاق الموصوفة سابقاً تتكون الصوائت الفرعية كالألف الممالة وغيرها[29].

ويستعمل بعض الدارسين كذلك مصطلح الحركة الأمامية والحركة الخلفية، ويعنون بالحركة الأمامية الحركة التي ترتفع فيها أو عند النطق بها مقدمة اللسان نحو سقف الفم، ويعنون بالحركة الخلفية ارتفاع مؤخرة اللسان نحو سقف الحنك[30].

الأوصاف العامة للأصوات الصائتة:

بعد أن عرفنا الصوت الصامت بأنه صوت مجهور يتكون باندفاع الهواء في جريان مستمر خلال الفم والحلق، وخلال الأنف معهما أحياناً دون أن يعترض الهواء شيء من أعضاء النطق اعتراضاً جزئياً أو كلياً، أي: من دون أن ينحبس الهواء في مخرج ما، ومن دون أن يضيق مجراه حتى يحدث احتكاكاً نذكر هنا الملامح العامة للصوائت التي تتماز بها عن الصوامت، وذلك على النحو التالي:

أولاً– الصوائت كلها مجهورة، والجهر في أصل المعنى اللغوي ارتفاع الصوت، تقول: جهر بصوته فهو جهير، وأجهر فهو مجهر إذا رفع صوته[31]، وأما الجهر في اصطلاح علماء الأصوات فهو اهتزاز الوترين الصوتيين عند نطق الحرف، وبذلك يتبين أن الصوائت يهتز الوتران الصوتيان عند

النطق بها، وهذا ما يجعل جرسها أوضح في السمع، ومقابل الجهر هو الهمس، وهو عدم اهتزاز الوترين الصوتيين عند النطق بحيث لا يسمع للأوتار رنين عند تكون الحرف[32]، وقد عرف علماء العربية هذه الصفة في الصوائت، يبدو ذلك جلياً من كتاب سيبويه حين قال: ((وهذه الحروف غير مهموسات، وهي حروف لين ومد، ومخارجها متسعة لهواء الصوت))[33]، بل إن سيبويه قال: ((المجهور حرف أشبع الاعتماد في موضعه، ومنع النفس أن يجري معه، حتى ينقضي الاعتماد عليه ويجري الصوت، ..... وأما المهموس فحرف أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى النفس معه ... وأنت تعرف ذلك إذا اعتبرت فرددت الحرف مع جري النفس، ولو أردت ذلك في المجهور لم تقدر عليه))[34].

فمن الواضح أن سيبويه قد أدرك الفرق بين الصوت المجهور والصوت المهموس، فالمجهور عنده هو صوت اشتد الاعتماد عليه، أما المهموس فالاعتماد عليه ضعيف، وربما يطول وصف كلام سيبويه هذا، والواضح منه أنه وصف الفارق بين المجهور والمهموس وصفاً دقيقاً، كما يبدو واضحاً الجهد الذي بذله في تذوق الأصوات وتعرف صفاتها واستكناه حقيقتها.

ثانياً– تتصف الصوائت القصيرة والطويلة بالوضوح السمعي[35]، وهذا الملمح له علاقة بما قبله؛ لأن هذا الوضوح السمعي راجع إلى صفة الجهر التي تتميز بها، ما يعني قوتها واهتزاز الحبال الصوتية وارتفاع نبرتها ووضوح أثرها السمعي وكثافة مادتها الفيزيائية.

ثالثاً– سهولة مخارجها مع صعوبة تحديدها على وجه الدقة، فهي كما سبق أصوات لا يعترضها عارض من أعضاء النطق، وليس لها حيز معين[36]، وهذا ما يجعل التصويت بها ميسوراً؛ لأنه أقل جهداً، فالنطق بالصوائت يحدث مع جريان النفس في الزفير خارجاً من الجوف دونما انسداد أو احتكاك؛ ولهذا فهي تحمل طاقة فيزيائية قوية مقارنة بغيرها، فالسامع يميز الصوائت من مسافة لا يستطيع عندها تمييز الصوامت، غير أن بعض أعضاء الكلام تتخذ وضعيات دقيقة لإنتاج الصائتات، ما يجعل تحديد مخارجها مشكلاً.

رابعاً– كثرة دورانها[37]، والمقصود بكثرة الدوران كثرة هذه الأصوات في الاستعمال، وهذا من الشائع في كل اللغات، فلا تكاد ترى حرفاً صامتاً إلا يتلوه صائت يوضحه ويعتمد عليه، ولهذه الصوائت وظائف دلالية شأنها شأن الصوامت لا فرق.

ومن خلال الدراسة الاستقرائية تبين أن صائت الفتحة القصيرة والطويلة هو أكثر الصوائت وضوحاً وليناً، وهو كذلك أكثرها شيوعاً ودوراناً؛ وذلك راجع إلى خفته، فإنتاجه يحتاج إلى جهد أقل من الضمة والكسرة، ثم يأتي بعده في نسبة التكرار والدوران صائت الكسرة والياء، ثم يأتي أخيراً صائت الضمة والواو.

ورغم قلة صوائت العربية مقارنة بغيرها من الصوائت في اللغات الأخرى فإنها تكاد تضاهي الصوامت في دورانها وانتشارها في الكلمات، فلا نكاد نرى صامتاً إلا يتلوه صائت، وبذلك تتوزع الصوائت والصوامت في كلمات العربية توزيعاً متوازناً بحيث يمكن من توضيح المخارج وإظهار قوة الحروف، يقول سيبويه: ((فأما الأحرف الثلاثة فإنهن يكثرن في كل موضع، ولا يخلو منهن حرف، أو من بعضهن، ثم ليس من الزوائد يعدل كثرتهن في الكلام، هن كل مد، ومنهن كل حركة، وهن في كل جميع، وبالياء الإضافة والتصغير، وبالألف التأنيث، وكثرتهن في الكلام وتمكنهن فيه زوائد أفشى من أن يحصى ويدرك، فلما كن أخوات، وتقاربن هذا التقارب أجرين مجرى واحداً))[38].

الخاتمة

بعد الانتهاء من محاور البحث والإحاطة بموضوع الصوائت في اللغة العربية أسجل هنا مجموعة من النتائج التي تمثل خلاصة البحث، وأوردها في نقاط على النحو التالي:

1. الأصوات الصائتة هي قسيم الأصوات الصامتة في كل اللغات، وتشترك الصوائت والصوامت في تشكيل الكلمات ونسج بناها المختلفة.
2. لم يهمل علماؤنا الأوائل مبحث الصوائت، بل درسوه درساً وافياً، نلحظ ذلك مع بداية التأليف اللغوي عند الخليل بن أحمد وسيبويه، ثم نجد تفصيلات مهمة ودراسات دقيقة عند ابن جني وابن سينا وغيرهما، وهي دراسات لا تكاد تختلف عن دراسات المحدثين.
3. يكاد يتفق دارسو الأصوات عل أن أهمية الصوائت في اللغة تضاهي أهمية الصوامت في تشكيل صيغ الكلمات وتنويع بناها الصرفية.
4. تتميز الأصوات الصائتة بأنها أصوات مجهورة يهتز الوتران الصوتيان عند النطق بها، ما يجعلها ذات دوي في السمع، وذات أثر سمعي واضح، كما تتميز بخروج الهواء عند نطقها حراً طليقاً لا يعترضه عارض من الأعضاء، ولا ينحبس الهواء عند التصويت بها انحباساً كلياً أو جزئياً.

5. الصوائت في العربية ست هي: الفتحة والضمة والكسرة، والألف والواو والياء، وتعرف الثلاثة الأولى عند علماء العربية بالحركات، والثلاثة الأخيرة بالمدود، كما تسمى الأولى عند الدارسين المحدثين الصوائت القصيرة، وتسمى المدود بالصوائت الطويلة.

6. مع عدم وجود مخرج واضح للصوائت وعدم انتمائها إلى حيز معين في جهاز النطق فإنه يمكن وصف الصوائت من خلال حركة اللسان والشفتين وبعض الأعضاء الأخرى غير أن وصف الصوائت على وجه الدقة مشكل جداً نظراً للحركة الدقيقة لأعضاء النطق التي تصدرها والتي تلون كل صائت برنين خاص.

7. للصوائت وظائف عدة في الكلام منها: أنها تهيئ للنطق بالصوامت التالية لها، وتسهل النطق، وتقتصد الجهد، وتسهم مع الصوامت في تشكيل الكلمات صوتياً وصرفياً، وهي في العربية تكاد تساوي الصوامت في كثرة ورودها في الكلمات، وهذا ما ثبت من خلال الدراسات الإحصائية.

الهوامش

[1]- انظر: تاج اللغة وصحاح العربية لإسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى، 1956: مادة (صوت).

[2]- لسان العرب لجمال الدين محمد بن مكرم المعروف بابن منظور، دار صادر، بيروت، دون رقم طبعة دون تاريخ نشر: مادة (صوت).

[3]- سر صناعة الإعراب لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق: حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، 1985: 6. .

4-الأصوات اللغوية لإبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1992 :26.

5-علم اللغة (مقدمة للقارئ العربي) لمحمود السعران، دار المعارف، مصر، دون رقم طبعة، 1962: 124.

[6]- انظر: دراسة المخارج والصفات لجمال بن إبراهيم القرش، مكتبة طالب العلم، جمهورية مصر العربية، الطبعة الأولى، 2012: 18.

[7]- انظر: علم اللغة (مقدمة للقارئ العربي) لمحمود السعران، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الثانية، 1997: 124.

[8]- في الأصوات، دائرة الشؤون الثقافية، بغداد، دون رقم طبعة، 1984: 3-4.

9- انظر: أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية لفوزي حسن الشايب ، عالم الكتب الحديثة، الأردن ، الطبعة الاولى ، 2004 :424.

10- معجم العين للخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار الرشيد، بغداد، دون رقم طبعة، 1980: 64/1.

[11]- لسان العرب لابن منظور: 5/14.
[12]- كتاب سيبويه لأبي بشر عثمان بن قنبر الملقب بسيبويه، علق عليه: الدكتور إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، دون رقم طبعة، 2016: 289/4.
[13]- انظر: المصدر السابق: 315/2.
[14]- انظر: سر صناعة الإعراب: 31.
[15]- الألسنية العربية لريم ونطحان، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الثانية، 2003.
[16]- انظر: المصدر السابق: 61 وما بعدها.
[17]- انظر: كتاب سيبويه: 315/2.
18- سر صناعة الإعراب: 31.
[19]- محاضرات في اللسانيات لفوزي حسن الشايب، عالم الكتب الحديثة، الأردن ، الطبعة الثانية، 2016: 272.
[20]- انظر: الصوتيات النطقية (مدخل إلى تحليل المنظومة الكلامية) لشوقي المقري، مكتبة الطالب، وجدة، الطبعة الأولى، 2016:167.
[21]- انظر: المصدر السابق: 168.
[22]- أسباب حدوث الحروف للشيخ الرئيس ابن سينا، طبعة السلفية، القاهرة، دون رقم طبعة،: 83- 1966.
[23]- انظر: المصدر السابق: 85.
[24]-التطور النحوي لبرجستراسل، مطبعة السماح، القاهرة، دون رقم طبعة، 1929: 40.
[25]- معجم العين: 57/1.
[26]- انظر: المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث العلمي لرمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1997: 93.
[27]- انظر: الأصوات اللغوية لإبراهيم أنيس:34، الأصوات اللغوية للدكتور عبد القادر عبد الجليل، دار الصفا للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الأولى، 1998: 209- 210.
[28]- سر صناعة الإعراب: 8/1.
[29]- انظر: الأصوات اللغوية لإبراهيم أنيس: 34.
[30]- انظر: المدخل إلى علم اللغة لرمضان عبد التواب: 95.
[31]- انظر: لسان العرب لابن منظور: مادة (جهر).
[32]- انظر: الأصوات اللغوية لإبراهيم أنيس: 124 وما بعدها.
[33]- كتاب سيبويه: 289/4.
[34]- المصدر السابق: 434/4
[35]- دراسة الصوت اللغوي لأحمد محتار عمر، عالم الكتب، القاهرة، دون رقم طبعة، دون تاريخ نشر: 135.
[36]- انظر: علم الأصوات لكمال بشر، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، دون رقم طبعة، 2000: 149.
[37]- انظر: المصدر السابق: 149 وما بعدها.
[38]- كتاب سيبويه: 318/4.